المحاضرة الأولى : نظرية العناية الإلهية (أوغسطين)

(هل أحداث التاريخ تسير وفق حتمية دينية ؟)

مقدمة :

أوغسطين Saint Augustin:

حياته: هو فيلسوف مسيحي و أحد كبار الكنيسة الكاثولية، ولد في طاغاست Tagaste و هي ما تعرف اليوم بسوق أهراس في شرق الجزائر في 13 نوفمبر 354م، و توفي في "هبون" اسمها اليوم بونة "عنابة" في الجزائر، في أغسطس من سنة 430، كان أبوه وثنيا بينما كانت أمه مسيحية.

درس "أغسطين" النحو في طاغاست والفنون الحرة و فنون الخطابة في قرطاجة، و يصف أغسطين أحواله في تلك السنة و هو في السادسة عشر من عمره فيقول، أنه كان منهكا من انتهاب اللذات و الشهوات غير مهتم بالدراسة حتى أنه في تلك السنة قد تركها و أقام في منزل أبيه، و يقول عن حاله في تلك السنة: "و لدى خروجي من طفولتي إرواء تعطش، لا أخشى الشهوات، أسلمت تياري لما لا نهاية له من الشهوات المتزايدة في قلبي يوما بعد يوم كأنها عناية كثيفة.[1]

و بعد وفاة والده عاد إلى قرطاجة في كفالة أحد أقربائه و هنا بدأ حرصه على التعليم، و في سن التاسعة عشر قرأ كتابا "لشيشرون" فأثر في نفسه أبلغ تأثير إذ أوقد في عقله حب الحقيقة الخالدة و الحكمة الدائمة، و بعدها صار معلما ناجحا للخطابة في قرطاجة و في الوقت نفسه، استمر في تعليم نفسه فدرس كتاب "المقولات" لأرسطو و في سن السادسة أو السابعة و العشرين ألف أول كتبه و هو "رسالة في الجميل و الملائم" كما اشتغل بالتدريس و كان معلما للخطابة في مدينة ميلانو كما ألف عدة كتب منها: "مدينة الله".

أ- غاية الإنسان السعادة: الفلسفة عند "أوغسطين" هي الحكمة والغاية من الحكمة هي السعادة، السعادة التي تؤدي إلى طمأنينة النفس، و لا سبيل إلى إدراك حقيقة هذه السعادة التي

[1] - عبد الرحمان البدوي: موسوعة الفلسفة المؤسسة العربية للدراسات و النشر،ط1، ج1، 1984، ص 247-249

تؤدي إلى طمأنينة النفس، و لا سبيل إلى إدراك حقيقة هذه السعادة إلا "بمعرفة الإنسان لنفسه بنفسه"، كما دعا إلى ذلك سقراط، لأن النفس إدا عرفت نفسها: من ينبغي عليها أن تطيع؟ و ماذا يجب عليها أن تسيطر؟ أن تطيع الله و أن تسيطر على البدن. [2]

إن السعادة تقوم عند حصول المرء على ما يريد، لكن ليس على أي شيء، بل لا بد أن تتوافر في هذا المرء عدة شروط منها:

أن يكون ثابتا باقيا: لا يتوقف على الصدفة، والله هو الموجد الوحيد الذي يتصف بالدوام وعدم الخضوع للصدفة، لهذا يجب أن يكون مرادنا هو الله إن شئنا تحصيل السعادة، التي هي تتعلق بالروح لا بالجسد.

ب- الله: إذا كان الله هو وحده موضوع سعادتنا، فلا بد لنا من إثبات وجوده، وأوغسطين يؤمن بأن إدراك وجود الله أمر بين، وفي الوقت نفسه يقرر أننا وإن كنا نقر بوجوده فإننا لا نستطيع أن ندرك ماهيته.[3]

والله عند أوغسطين هو الحق السرمدي الصمد، وهو الخير المطلق وهو مبدأ كل وجود و مبدأ كل معرفة ذهنية توجد "الصور". أو الحقائق الأزلية الأبدية ففيه و به وحده يمكننا معرفة كل

الأشياء إذ هي تجد سندها وأصلها في الله كخير مطلق ومصدر كل خير.

فلسفة التاريخ عند أوغسطين

تقوم فلسفة التاريخ عند "أوغسطين" على أن العالم منذ أن خلقه الله وهو في صراع بين نوعين من الحب: حب الإنسان لله، وحب الإنسان لنفسه، لهذا انقسمت المدينة إلى مدينتين:

---

[2] ـ عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة، ص 249-250.

[3] - Dictionnaire des auteurs , ed :robert laffont, Tl Grand Bretagn, 1980, P385 [3]

مدينة أرضية، ومدينة سماوية، وانقسم التاريخ إلى تاريخ دنيوي و تاريخ مقدس، والإمبراطورية البابلية والإمبراطورية الرومانية هما نموذجا الدولة الدنيوية وأورشليم هي مقام المدينة السماوية، وقبل أن نتطرق لنظرية المدينتين عند القديس أوغسطين علينا أولا تحديد مفهوم المدينة عنده والجدير بالذكر أنه لم يعالج أبدا مفهوم المدينة معالجة مجردة وعامة كما فعل الفلاسفة السابقون عليه وإنما عالجه من خلال استدلالات مفككة إذ كان ممزقا بين عقله وإيمانه، والمدينة عنده لم تكن مدينة محسوسة ملموسة أي مجموعة من المساكن والحدائق والطرق والأسوار، إنما كانت مدينة إنسانية أي مجتمعا إنسانيا، و يقول عنها: "المدينة ليست إلا مجموعة من البشر تقع بينهم رابطة اجتماعية" وقد حد د هذه الرابطة على أساس الحب ليتوصل إلى أن المدينة هي الشعب الذي هو جماعة من الكائنات العاقلة التي يجمع بينها حب نفس الشيء.[4] حاول أوغسطين أن يقيم بناءا مثاليا جديدا يتكون من مملكتين الأولى إلهية، والثانية أو دنيوية وتخضع الثانية منهما للأولى لكي يبرر تحكم الكنيسة في الدولة وفي العالم.

[4] ـ محمود الخضري: لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، ط1، 1992

1- مفهوم المدينة السماوية

يرى أوغسطين أن مدينة الله موجودة فعلا، فالكتاب المقدس يشير إلى ذلك في كثير من المواضيع منها قوله: إن الأشياء الجليلة شاهدة على وجودك أيتها المدينة، مدينة الله.[5] أما عن طرق معرفة هذه المدينة فتتمثل في طريقتي: الوحي والإلهام.

و هذه المدينة السماوية التي يعتبر الله مؤسسها وملكها، توجد في هذا العالم الأرضي في بابل إنها أسيرة ،وإنها تضم أسرة البشر الذين يعيشون بالإيمان، وينتظرون بصبر استقرار المسكن الأبدي، وكل الخيرات الأبدية، لقد أعطيت هذه الأسرة منذ الآن الوعد بالخلاص، فالله عنده الحق السرمدي الصمد وهو الخير المطلق، وهو مبدأ كل وجود ويكفينا أن ندخل في ذواتنا لنجد أنفسنا ونجد فيها الله.

وقد كان يرمز للمدينة السماوية بأورشليم (القدس) قبل مجيء السيد المسيح ويقول أوغسطين في اعترافاته :[6]" نار الحيرة تلهبنا، فنروح ونصعد إلى سلام، أورشليم وما أعظم فرحي حين أسمع ".[7]" إلى بيت الرب نذهب" هناك تقدم لنا - الإرادة الصالحة - مكانا وهناك تنال أمنيتنا الوحيدة بأن نبقى فيه إلى الأبد. [8]

ولقد حاول "أوغسطين" تتبع مسيرة مدينة الله أو المدينة السماوية تاريخيا منذ أوائل أبنائها على الأرض ودفن هابيل وحتى نوح والطوفان، ثم حال صمت الكتاب، المقدس ودون تتبع هذه المسيرة، وهذا راجع إلى مصدر أوغسطين التاريخي فيما يتعلق بمدينة الله الذي هو الكتاب المقدس وحده، ليس هذا فحسب بل إنه عد هذا الكتاب النص الوحيد الذي يقيم لنا من خلال ما يقدمه من تاريخ صورة ما ستكون عليه الإنسانية في المستقبل الغاية التي يشير إليها .

---

[5] - يوسف كرم: **تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط**، دار المعارف بمصر، ط2، ص 118.

[6] - علي زعبور: **الفلسفة في أروبا الوسيطية و عصري النهضة و الإصلاح**، المكتب العالمي للطباعة، ص 175.

[7] - المرجع نفسه، ص175

[8] - يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية، المرجع السابق، ص 119

ويذهب أوغسطين إلى أن الله في البدء عندما خلق الإنسان كان يعتزم أن يصير أبناء الإنسانية جميعا أعضاء في مدينته، ولكن خطيئة آدم أب البشرية قضت على هذا المشروع لأنها أدت إلى نزول الإنسان ملوثا بهذه الخطيئة إلى الأرض، حيث أصبح غير جدير بشرف هذه المدينة، ولكن الله يضفي رحمته Gratia متى يشاء على الناس الخيرين ليجعل منه أعضاء في مدينته. و مدينة الله عند القديس أوغسطين هي جسم المسيح الذي ينمو مع الأيام وسوف يكتمل نموه في الوقت المحدد له سلفا، فكل جيل وكل عصر وكل منارة تساهم في النمو من خلال المسيحيين الحقيقين أبناء مدينة الله الذين ينتمون للقطيع واكتمال مدينة الله هو اكتمال نمو جسم المسيح.

وحسب أوغسطين فإن العالم ليس صورة الله وإنما أثر له، حيث يحمل العالم في طياته الصفات الإلهية من وحدة خيرية، وحق وجمال، أما الشر فدخل الأرض بهمجية آدم وهبوطه إليها، ليتكاثر بالأفراد الذين يتفرعون إلى جماعات، كل يسعى إلى اتجاه ما، ثم تكون المدن والدول بمرور الوقت، وجد لدى الإنسان رغبات أو محبات في اتجاه ذاتي، وأخرى نحو الله وبذلك تكونت دولتان أو مدينتان ترجع إليهما سائر المجتمعات البشرية، المدينة السماوية أو مدينة الله والمدينة الأرضية أو مدينة الإنسان. [9]

في نظر أوغسطين هناك حبين أو رغبتين صنعا المدينتين:" حب الذات لحد احتقار الله صنع المدينة الأرضية، وحب الله لحد احتقار الذات صنع المدينة السماوية، والمدينة الأولى تتجسد في ذاتها، أما الثانية فتتجسد في الرب كما أن الأولى تؤسس بأمجاد البشر، أما الثانية فإن الله الشاهد على الضمير هو مجدها الأكبر..."[10]

ومن هذا تستنتج أن الإنسان ذا طبيعة مزدوجة مكونة من روح وجسد وشتان بين طمأنينة الروح، وراحة الجسد، و من هنا كان موطنا للعالم الدنيوي، والمدينة السماوية في نفس الوقت. و عندما تتم تحقيق تلك الوحدة بين العالمين تكون نهاية التاريخ و التي هي فكرة مسيحية أصلية أحسن صياغتها بإحكام شديد ، وذلك من خلال تشبيه الإنسان الأرضي يجسم المسيح

---

[9] ـ علي زعبور: **الفلسفة في أروبا الوسيطية و عصري النهضة و الإصلاح** ، مرجع سابق، ص 168

[10] ـ المرجع نفسه، ص 169

الذي ينمو ويتطور وبروح المسيح التي تنشر الأخلاق الفاضلة، في كل الأرض على مر العصور، ليحقق في آخر المطاف.

2- مفهوم مدينة الأرض:

ومؤسسها هو الإنسان ولقد رمز لمدينة الأرض ببابل والتي تعني التشتت والبلبلة لغويا، وأبناء مدينة الأرض أهم خاصية مميزة لهم أنهم سيسعون لغاية واحدة هي: السعادة الدنيوية على الأرض، وهذه الغاية العامل المشترك الذي يجمع بينهم في مجتمع واحد، وبالرغم من تنوع الأشياء التي يرغبون فيها واختلافها، يجمع بينهم أبناء الأشياء المادية الذي لا يهدأ له حد، ويطلق أوغسطين على مدينة الأرض اسما معبرا تماما، عن حقيقتهم فهم cetens des commercants وأبناء مدينة الأرض هؤلاء يحبون حياة الإنسان القديم homo و حياة ما قبل الشريعة اليهودية أي ما قبل التمييز بين الخير والشر، أي حياة الإنسان الأرضي بعد الخطيئة وهي حياة مرة.

3- الكنيسة والسلطة السياسية:

في ثنائية أخرى عرض أوغسطين وحاول تفسير سيرورة التاريخ وهنا لعبت الظروف التاريخية دورا حاسما في تحديد العلاقة بين قطبيها.

من المعروف أن الفترة التي عاش فيها أوغسطين وكتب هي تلك العقود الأخيرة للفترة الممتدة من القرن الرابع الميلادي إلى العقد الأول من القرن الخامس، حيث كانت الفترة فترة اضطرابات عميقة أسفرت عن الانتقال من عصر إلى عصر، وعن اختفاء حضارة وبزوغ أخرى أي أفول الحضارة اليونانية الرومانية في العصر القديم وبزوغ الحضارة المسيحية في العصر الوسيط، وتمثلت عبقرية أوغسطين في تبنيه (حقيقة هذه المرحلة) التي عايشها وفي إدراكه أن ثمة قضايا عديدة تحتاج لإعادة طرح ولمعالجة جديدة وأن هذه هي رسالته، وهذا هو دوره وعلى رأس هذه القضايا كانت علاقة الدين بالسلطة السياسية وعلاقة الكنيسة بهذه السلطة. وأوغسطين دائما في معالجته للقضايا يرى ضرورة أن يضع نصب عينيه أن المسيح لم يشجع أتباعه على مقاومة أو حتى على تجاهل السلطة السياسية القائمة، بل على المسيحيين

طاعة أوامر السلطة السياسية في كل الأمور إلا إذا تعارضت مع التعاليم المسيحية المقدمة، وعززت هذه الفكرة، أي طاعة السلطة السياسية القائمة رسالة "بولس" للرومان.

وقد رأى أوغسطين أن الفصل بين الكنيسة والسلطة السياسية والخروج من المأزق الذي أصبحت فيه المسيحية يكون بتعديل العلاقة بين الكنيسة والدولة والرجوع إلى أصول المسيحية الأولى وحجر الزاوية فيها هو هذه القاعدة أي أن تعطي ما لقيصر لقيصر و ما لله لله، وقد أدرك أوغسطين أن سلامة استقرار المسيحية لن يتحقق إلا بنوع من الفصل بين سلطة الكنيسة والدولة وبين الدنيا والسياسة مع الاكتفاء بجعل العلاقة بين الطرفين علاقة تعايش سلمي، وبالرغم من أن الكنيسة تبنت فكرة أوغسطين بعد ذلك بحيث جعلت منه صاحب نظرية سياسية مسيحية الإباحة سيطرتها على الدولة فإن أوغسطين كان يسعى -على العكس - لإيجاد نوع من الفصل بين السلطتين التباعد بينهما، وإن البشر قادرون بواسطة تأويل تلك الإرادة السحرية الخطيرة على تبرير كل المواقف وكل الآراء و كل سلوك، وموقف أوغسطين هذا خير دليل على أنه كان يصبغ نظرياته بما يحقق مصالح عقائدية وأن نظرياته لم تكن مقطوعة الصلة بالواقع بل عاكسة له وساعية لإصلاحه.

ونجح أوغسطين في تحديد الداء والدواء معا، أما الدواء، فهو ضرورة عودة المسيحية السالف عهدها وكما كانت عقيدة لا يشغلها شاغل عن إرشاد أبنائها لطريق الخلاص، طريق مدينة الله، وأما الداء فهو الذي أصابها عقب اتخاذها رسميا كدين للإمبراطورية الرومانية.

وعليه نستنتج: أن التاريخ عند أوغسطين لم يكن مجموعة من الوقائع والأحداث ساهمت في صنعها شخصيات، إنما التاريخ في الحقيقة يتجلى في خطة إلهية تتحقق حتما، ويكون تجليها في الماضي إشارة لما سيحدث في المستقبل وحتى آخر الزمان. فلسفة التاريخ عند القديس أوغسطين تتمثل في المدينة السماوية و المدينة الأرضية أي تاريخ المدينتين (التاريخ المقدس و التاريخ الأرضي الذي يتمثل في الحضارات).

1- القديس أوغسطين يؤسس لنظرية العناية الإلهية

تشير نظرية العناية الإلهية عموما إلى أن التاريخ يشبه إلى حد كبير المسرحية التي ألفها الإله منذ الأزل، غير أنه من يقوم بهذا الدور الرئيسي هو الإنسان، فما يقوم يفعله الانسان